

## مصطلح السيرة الشعبية

نشأت السيرة الشعبية في ظروف صعبة ، وعاشت حياة أكثر صعوبة ، فإذا كانت الطبقات الشعبية ، قد استقبلتها بالترحاب وتحمست لها ، فقد نظر أرباب اللغة والأدب إليها باستعلاء ونبذوها ولم يتم الاهتمام بها جدياً إلا حديثاً ، اثر انفتاح الباحثين الغربيين ، ثم الشرقيين ، فيما بعد ، على الأدب الشعبي . لقد ارتبطت السيرة الشعبية بالمشاكل من شتى المجالات ، فهي أولاً سيرة شعبية تتوجه إلى الطبقات الشعبية في أن الأعمال الأدبية كانت تكتب إجمالاً للخاصة أساساً ، ثم يتذوقها من العامة من يشاء وهي ثانياً دات لغة ركيكة ، في حين كانت الأعمال الأدبية مميزة اللغة<sup>1</sup>.

السيرة الشعبية نوع أدبي يُطلق على الروايات التي رؤاها (مؤلفوها الشعبيون) مجهولون، تأثروا بأدب السيرة، من حيث ابتداؤها ببيان النسب، وذكر النبوءات المبشرة بميلاد بطلها وتكوّنه، ومن حيث اعتمادها على عنصر الصراع القصصي وغالباً ما تحمل السيرة اسم بطلها، من أجل أن يحقق البطل أهدافه، أو ما يُنتظر منه وتروي قصة حياته من الولادة إلى الوفاة. وهو (البطل)، غالباً ما يكون شخصية تاريخية وردت أخبارها في كتب التاريخ والسيرة والأدب، مثل: عنتر بن شداد، والمهلهل بن ربيعة (الزير سالم)، وسيف بن ذي يزن، والظاهر بيبرس. “ومن الصعب الوقوف عند المراحل الأولى لرواية السيرة الشعبية، لأنها نصّ مفتوح، لم يغلق إلا بعد تدوينه الذي تحدده الباحثة المصرية ألفت الروبي بالقرن الرابع عشر، في زمن المماليك بمصر. غير أنه ليس من الصعب الوقوف على طبقات السيرة وروايتها، فتجد داخل فصولها وحكاياتها أكثر من راوٍ، وكل راوٍ يبني حكايته على خطابه هو، وخطاب المرحلة والزمن الذي يعيش فيه. لهذا تجد داخل السيرة تفسيرات لآيات قرآنية من جهة، وحكايات عربية وفارسية وتركية، بل وحتى أوروبية، قديمة. ربما هذا من جهة تشابه الحكايات الشفاهية بين الشعوب، لكن من ”الصعب تحديد أصل أيّ حكاية وجذرها والمدينة التي بدأت تروى فيها

والسير الشعبية هي فضاء للقيم، والإنتاج الفني والجمالي تخلقه الجماعة الشعبية وتتنبأه وتضيف قيمها ولا يجب أن نختزل التعامل مع السير الشعبية في قيم سلبية وإيجابية فقط وإنما لابد أن ننظر لها بالتقدير كعمل إبداعي وجمالي بما فيها البعد الدرامي والتفاعل مع الشخصيات

وقد ثبت من خلال الأبحاث والدراسات العلمية للموروث الشعبي أن هناك تأثيراً كبيراً لما تحويه السير الشعبية من قيم في تقدم الأمم

## مرتكزات بنيتها

وتستند السيرة الشعبية على حكايات الماضي الشفهية والمكتوبة من مثل: الخرافات والحكايات الشعبية المليئة بالجن والسحر وقصص الأنبياء والأولياء والصالحين و أيام الجاهلية وأخبار الفتوحات وقصص الفرسان، حيث شكلت روافد مهمة استقى منها الراوي الشعبي عناصر لتشكيل الأجواء الملحمية التي صورها، لكن الراوي الشعبي مارس فيها حرية واسعة في التعامل مع التاريخ من حيث الأحداث والشخصيات

ففي السيرة الواحدة، تتجاوز الإحالات إلى تواريخ متباعدة، وتجتمع شخصيات تاريخية تفصل بينها قرون، كما سنرى في "سيرة سيف بن ذي يزن" التي جعل هذا البطل العربي الجاهلي يقاتل الملك سيف أراعذ الذي حكم الحبشة في القرن 14م (8هـ). وفي "سيرة علي الزئبق" التي تجري أحداثها في عهد هارون الرشيد (ت 193هـ)، بينما سلطان مصر في السيرة هو أحمد بن طولون الذي حكمها بين سنتي 254هـ و 270هـ، وبعض أحداث القصة تقع في الأزهر الذي تم بناؤه في 361هـ.

والقصة المركزية في السيرة الشعبية هي قصة حياة بطلها منذ بدايتها حتى الوفاة. وتنظم في وحدات حكاية متفاوتة الطول يقوم تعاقبها على منطوق عام تشترك فيه مختلف السير. فالوحدات الأولى تتعلق بالنسب والنبوءات المبشرة والولادة الخارقة والنشأة الصعبة.

## لغتها

لغة السير الشعبية النثرية لغة سهلة مسجوعة تكاد تقترب إلى لغة التخاطب عند أهل المدينة التي يمتزج فيها الأصل العربي بروافد شعبية من مختلف الشعوب مع بعض آثار اللغة الدارجة التي تستخدم محلياً؛ فهي تكونت بحكم المزج والاستعمال والاختلاط وبالتزاوج اللغوي.

وتختلف السيرة عن الملحمة في سمات كثيرة، أهمها الخلو ممّا يخالف المعتقد الإسلامي، كتعدد الآلهة وتوالدها مثلاً، ولكن هناك نقاط تشابه بينهما فهي أي السير كذلك، شديدة الطول، وأن الأبطال فيها يتميزون بالشجاعة الخارقة

والسجع في السيرة لا يقصد لذاته كحلية لغوية، وإنما هو يقصد كوسيلة مساعدة للحفظ، ولتتم تناقل السيرة مشافهة وعن طريق السماع، وكذلك يخدم هذا الهدف أيضاً الأسلوب العام المتبع في تقسيم الجمل إلى فقرات صغيرة متناسقة موسيقياً ومتساوية من حيث الطول، وعدد الحروف، ومن ناحية الإيقاع الموسيقي أيضاً

استعمال الشعر في السير الشعبية يأتي للاستدلال أو الاستشهاد وكذلك يأتي كأداة صراع داخل المعركة. إذ يخوض الأبطال معارك كلامية قبل معارك السيف، واستعمال الشعر في الحوار بين الأبطال أمر شائع في السير الشعبية كلها، وهنا يقف

المشهد من الناحية السرديّة تماماً، وتنتقل المسألة كلها إلى عملية حوارية بالشعر واستعمال الشعر في الحوار له دلالاته الفنيّة في تصوير الصراع وتجسيده، وفي إبراز المعالم النفسيّة التي يقوم عليها هذا الصراع.

ويأتي الشعر كذلك على لسان الأبطال لرسم موقفهم من الأحداث فالمؤلف يستعمله للتعبير عن الانفعالات النفسيّة في المواقف التي يكون فيها الشعر أصدق دلالة وأبعد أثراً، والشعر بوظائفه هذه لا يطغى على العمل الأصلي، وإنما يساعده ويحسنه، ولو نزعنا من معظم السير كل ما بها من شعر لما غير هذا من مكانتها القصصية في شيء.

### علاقة السيرة بالأجناس الأدبية الأخرى

وتختلف السيرة عن الملحمة في سمات كثيرة، أهمها الخلو ممّا يخالف المعتقد الإسلامي، كتعدد الآلهة وتوالدها مثلاً، ولكن هناك نقاط تشابه بينهما فهي أي (السير) كذلك، شديدة الطول، وأن الأبطال فيها يتميزون بالشجاعة الخارقة، كما تختلط الأحداث التاريخيّة بكثير من الخرافات والأساطير، فضلاً عن اتساع رقعة الميدان الذي تتحرك فيه الوقائع والشخصيات، كذلك فللجن والسحر والمعجزات والكرامات، ويدافع د. أحمد شمس الدين. والرؤى والنبوءات الصادقة، وجود في تلك السير الحجاجي عن السيرة الشعبيّة بوصفها نوعاً أدبيّاً “من أنواع الأدب العربي الذي أهمل، أو أغفل؛ ذلك لأنه لم يندرج ضمن الأنواع الأدبية المعروفة، وقد اشترك في هذا الإهمال كثير من الباحثين، عرباً كانوا أم غير عرب. وقد أدى ذلك إلى التهاون في جمع نصوصها، فضاعت النصوص التي كانت تُروى في الأربعينيات عن عنتر، وسيف بن ذي يزن، والمهلهل، بوفاة رواتها. كما ضاع كثير من النصوص وينفى د. الحجاجي أن تكون السيرة رواية، ”المختلفة لسيرة بني هلال لوفاة رواتها حيث إن السيرة فن “نبت وتطور وارتقى قبل أن تظهر الرواية وغيرها من الأنواع الأدبية، إضافة لفظ رواية لعمل له قوانينه الخاصّة التي استقرت، يُعدّ إضافة بعيدة عن الموصوف؛ فالرواية فن لم يستقر بعد،...، ولا يمكن تطبيق قواعد فن لم يكتمل على فن اكتمل منذ أمد بعيد

وانطلاقاً مما ذكرناه عن أهميّة السير الشعبيّة في الأدب والحياة معاً، ومما لها من أثر راسخ في وجدان الناس في كل العالم العربي؛ سوف تقوم “الأيام” بنشر مقالات على شكل حلقات، في كل حلقة، تتناول فيها سيرة من السير الشعبيّة، وذلك للتعريف بها، من حيث الموضوع والبطل والشخصيات، وكذلك من حيث الأحداث والزمان والمكان، وهذا نموذج عن السيرة الشعبيّة في التراث العربي، وهي **سيرة ملحمة سيف بن ذي يزن**، لعل أبرز ما تؤرخ له هذه السيرة التي يتعاقب فيها الشعر والنثر، هو الامتداد بالصراع بين بين ابني نوح عليه السلام، سام وحام، ثم تلك الحروب القبائليّة الطاحنة التي اتخذت من الشام وبالتحديد لبنان، فلسطين، مصر، إلى حيث أفريقيا الوسطى والحبشة والسودان، مسرحاً للحروب القبليّة بدء من اليمن والجنوب العربي، بهدف إرساء الفضيلة والسيادة للعرب الساميين، على ذوي البشرة السوداء

، المتعارف عليهم بالحاميين ، انتسابا إلى (حام) ابن نوح ، ابن اللعنة أو الإبن الأسود- الإفريقي- الطريد .

تبدأ السير حوادثها بالكلام عن الملك اليمني دي يزن الذي ذاع صيته ، واشتهر أمره ، ودانت له بلاد العرب الجنوبية ، واتخذ له وزيرا حكيما عاقلا ، تصفه السيرة بأه لا نظير له في مشرق الأرض ولا في مغربها ، وكان اسمه ( يثرب ) وكان ملما بكثير من الكتب القديمة والملاحم العظيمة بما فيها التوراة والإنجيل ، وصحف ابراهيم الخليل . وقد علم ( يثرب ) من تلك الكتب أن نبيا اسمه محمد سيظهر الإسلام ويبطل سائر الأديان التي كانت ومن ثم تأخذ السيرة في عرض العلاقات بين جنوب الجزيرة وشمالها منذ أقدم العصور<sup>1</sup> .

يجهز الملك دو يزن العدة والجيش ويسير هو على رأسها إلى الشمال لمحاربة الملك (بعلبك) ولم تكد جيوشه تصل إلى مكة إلا ويظهر دو يزن رغبته في هدم الكعبة ونقلها إلى اليمن ، فينتقم رب البيت منه ، ويسلط عليه مختلف الأمراض التي أنتته عن عزيمته . وعلى إثر هذه المعجزات يعتنق هو وجيشه الإسلام . ويكسو الكعبة . ثم نجد الوزير ( يثرب ) الذي كان يدين بالإسلام سرا يعلن إسلامه ويرجو الملك أن يسمح له ببناء المدينة التي أطلق عليها اسمه ، وكذلك لأنه قرأ في كتب المتقدمين أيضا أن محمدا سيهاجر إليها . وبعدها يتجه شمالا إلى بعلبك ويبسط سلطانه ، ومن ثم ينتقل إلى الحبشة والسودان ، وهنا تنتهي حقيقة حدود النفود العربي الجنوبي ، وتعرض السيرة بعد ذلك لشرح دعوة نوح ... إن نوحا عليه السلام نام مرة وكان سام قاعدا عند رأسه ، وحام تحت رجليه ، فهب الهواء وكشف على عورة نوح فضحك حام وغضب سام ، وتشاجر الإثنان ، واستيقظ نوح واستطلعهما الخبر ، فقص عليه سام ما فعله حام ، فغضب والدهما غضبا شديدا ودعا على حام بسواد البشرية وتمنى لأدريته استعباد نسل سام لها<sup>2</sup> .

إن جوهر هذه السيرة يقوم على الصراع بين العرب الساميين الغازين بقيادة الملك سيف وبين الإفريقيين السود الحاميين. هذه السيرة في سردها للأحداث والحروب تستطرد في عرض الحياة وأعمال البطولة ، وهي صادقة في هذا العرض . فسيف بن دي يزن الذي ولد لأبيه في افريقيا ، والذي تربى في الفلاة ، والذي أتى في صباه بأعمال كثيرة تدل على بطولته وشجاعته ، كشخصية تاريخية ، فهو الأمير اليمني الذي قاد الجيوش العربية الجنوبية وطرد الجيوش من بلاده بمساعدة الفرس عام 570م ، وقد تحدث ابن هشام عنه وذكر لنا الكثير من الأشعار التي تنسب إليه ، أو قيلت فيه . ولم تقف شهرته عند هذا الحد ، بل تراه جدا للأسرة الحاكمة في ( بورنو ) وبطلا من أبطال ملاحم سكانها .

بعض الملاحظات :

<sup>1</sup>-شوقي عبد الحكيم موسوعة الفلكلور والأساطير العربية دار العودة بيروت ط الأولى 1982 ص411  
<sup>2</sup>- نفسه ص 412

أدخل الرواة في سيرهم كثيرا من الوحدات الروائية نتيجة تأثرهم بمؤلفات عرفت بعد زمن أبطال السير بوقت طويل ، فسيرة الملك سيف (متأثرة برحلة السندباد البحري ) إذ يقع مرارا في كوارث بحرية ، ويقذفه الموج إلى هذه الجزيرة أو تلك<sup>3</sup> كما يستنتج من ذلك ان سيرة سيف بن ذي يزن لم تنتشع فقط بالحكايات و الأساطير التي كانت شائعة في مدن الخلافة الاسلامية، بل و تناولت كذلك موقف الريبة الذي ابداه سكان المدن ازاء هذه الاساطير من وجهة نظر العقل السليم

صورة أمة: لا تصور السيرة الشعبية حياة فرد بل حياة أمة ، و تعني بتقديم صورة وافية عن هذه الأمة من خلال أعمال هذا الفرد، كما ترصد تطلعاتها و أمالها، و تحقق أحلامها . فالسيرة الشعبية كالأديسة تروي بطولات بطل تاريخي لكنها تضيف عليها الكثير من الملامح الدينية و الاجتماعية و السياسية بحيث يستحيل على هذا الشخص ان يحيا حياة شخصية بعيدة عن الهموم العامة ، بل يغدو مؤشرا على مرحلة تاريخية معبرا عنها.

فالسيرة الشعبية تغير و تبدل و تحذف و تضيف ، حتى ان سيرة الملك سيف يكاد يكون العنصر الحيد الذي احتفظت به من حياة هذا الملك اسمه فقط و صراعه مع الاحباش ، و كي لا نطلق القول جزافا ، سنورد ما تناقلته الكتب التاريخية من اخبار هذا الملك اليميني بشيء من الايجاز:

سيف بن يزن هو معد يكرب بن ابي مرة ، ما اشرف حمير ، و امه ريحانة ابنة علقمة ، و هي من نسل ذي جدن ، وقد انتزع ابرهة ريحانة من بعلها أبي. إن سيرة سيف بن ذي يزن أثر أدبي يتسم بقيمة كبيرة، فإن حبكة المتنوعة والمشحونة بمختلف الانعطافات المباغطة والمواقف الحادة تبدو نشيطة أخاذة جذابة حتى بالنسبة للقارئ المعاصر الذي فقد لدرجة كبيرة ولعه بالحكايات والمغامرات الأسطورية. وتحفظ هذه الملحمة بحيويتها تلك رغم ما يميز نتاجات هذا النوع الأدبي من تباطؤ ملحفي في سير الأحداث (بنتيجة الوصف الشكلي للطبيعة ، ومشاهدة المعارك التقليدية الرتيبة والتكرار الممل في الحوار كما هو معروف في السرد) يمكن اعتبار هذه الملحمة بحق نموذجا لمهارة الرواة العرب وقدرتهم على جلب المستمعين والقراء أولئك الرواة الذين ذاع صيتهم في العالم أجمع بفضل قصص ألف ليلة وليلة<sup>4</sup>.

في أشكال التعبير الأدبي الشعبي و قفات كثيرة قمينة بالبحث الجاد ينبغي على المهتمين من النقاد والباحثين الاستفادة من الذخائر العربية والكشف عن النصوص العربية إبداعا وجمالا .

<sup>3</sup>- سيرة الملك سيف 2 – ص 157

<sup>4</sup>- طلال حرب أولية النص ، نظرات في النقد والقصة والأسطورة والأدب الشعبي ص: 217-218